الباب الأول
الصفدى وعصره

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
الحياة السياسية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفترة التاريخية التى عاشها الصفدى تمثّل عصرى الازدهار والانحدار فى دولة المماليك الأولى ، والتى يطلق عليها المؤرخون اسم « دولة المماليك البحرية الصالحية » ؛ وإنْ كان معظم سلاطينها ليسوا من المماليك البحرية [١] والحديث عن تاريخ تلك الفترة يكشف الإطار العام لحياة الصفدى باعتباره واحدا من أمراء المماليك ، ومن كبار موظفى دولتهم الذين يتاح لهم - عادة - الاطلاع على شئون الملك وأسراره ، والإسهام فى كتابة وثائقه ، وتسجيل وقائعه ، وبخاصة ؛ لكونه شاهد عِيان ، ومؤرخا ثبتًا ، وناقدا بصيرا .

لم يكن يصحب الملك الأشرف [٢] فى رحلة صيده الأخيرة إلاّ شهاب الدين بن الأشل ، أمير شكاره [٣] ، حينما فاجأه بَيْدَرَا [٤] بضربة بالسيف قطعت يده ، ثم أجهز عليه ، يعاونه فى قتله جماعة من الأمراء المتآمرين معه ؛ وثار عليهم مماليك الأشرف خليل طالبين الثأر لأستاذهم ، وتمكّنوا من قتل بَيْدَرَا بعد يوم واحد من ارتكاب جريمته .

اتفقت كلمة المماليك على مبايعة أخى الملك الأشرف الأصغر ، ولقّبوه « الملك الناصر » [٥] .

---

(١) انظر : قيام دولة المماليك الأولى ، للعبادى ٧ ، والعصر المماليكى ، لسعيد عاشور ٥ .

(٢) صلاح الدين ، خليل بن قلاوون (٦٦٦ - ٦٩٣ هـ) تاسع سلاطين المماليك ، وإليه يرجع الفضل فى تطهير جميع الشام من الصليبيين ، واستعادة عكا منهم . انظر : دول الإسلام ، للذهبى ٢ / ١٩٤ ، والوافى بالوفيات ، للصفدى ١٣ / ٣٩٩ ، والأعلام ، للزركلى ٧ / ١١ .

(٣) هو الموظف المسئول عن الجوارح السلطانية ، مما يتعلق بالصيد وآلاته . انظر : صبح الأعشى ، للقلقشندى ٤ / ٢٢ .

(٤) بدر الدين ، بَيْدَرَا (ت ٦٩٣ هـ) كان أعز الناس عند أستاذه الملك المنصور قلاوون ، جعله الأشرف أتابكه ، ولكنه خرج عليه ، وقتله . انظر : دول الإسلام ٢ / ١٩٥ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٣٦٠ .

(٥) أبو الفتوح ، ناصر الدين ، محمد بن قلاوون (٦٨٤ - ٧٤١ هـ) أعظم سلاطين المماليك ، وهو الذى أعطى لأسرة قلاوون أهميتها فى تاريخ العصور الوسطى ، وفى سيرته كتب اليوسفى كتابه « نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر » . انظر : المختصر فى أخبار البشر ، لأبى الفداء ٤ / ٣٠ ، ووفيات السلامى ١ / ٣٨٨ ، وحسن المحاضرة ، للسيوطى ٢ / ١١٣ ، والأعلام ٧ / ١١

لم يستطع الملك الناصر أنْ ينهض بأعباء الحكم ؛ لصغر سنّه فعزله الملك العادل [١] ، وحبسه فى القلعة .

استغل حسام الدين لاجين [٢] فرصة خروج الملك العادل إلى اللُّجُون [٣] ، فثار عليه ، وخلعه ، ونفى الملك الناصر إلى الكَرَك [٤] ، واستولى على العرش ، وترك أمور الدولة فى يد نائبه مُنْكُوتَمُر الذى تسلّط على لاجين ، وحجبه عن الناس ، وأساء معاملة الأمراء ، فكان جزاؤهما القتل ، على يد الملك القاهر [٥] الذى لقى حتفه بعد أربعة أيّام ، وأعيد الناصر للمرة الثانية .

تفاءل الناس خيرا برجوع الملك الناصر ، وبالرغم من حداثة سنه ؛ فإنّه هزم التّتار هزيمة منكرة ، وأبلى بلاء حسنا فى موقعة مَرْجِ الصُّفَّر [٦] ، واسْتُقْبِل فى دمشق والقاهرة استقبالا حافلا ، ولكنّه لم يستطع السيطرة على أمراء المماليك ، فعاش مُضَيَّقًا عليه ممنوعا من الاتصال بالناس ، أو التَّصَرُّف فى أمواله ، فأبدى رغبته فى أداء فريضة الحج ، واتّجه إلى الكَرَك ، وخَلَع نفسه وأرسل إلى المماليك بما عزم عليه ، وطلب إليهم أنْ يختاروا غيره سلطانا عليهم .

---

(١) زين الدين كِتْبُغَا بن عبد الله ، المنصورى (٦٣٩ - ٧٠٢ هـ) من سبى التتار ، وكان - مع شجاعته - يغْوِزُه رأى وحزم . انظر : تحفة ذوى الألباب للصفدى ٢ / ١٩٣ - وفيه ضبط الاسم « كُتْبُغَا » - والبداية والنهاية ، لابن كثير ١٣ / ١٣٨ ، والأعلام ٥ / ٢١٩ .

(٢) لاجين بن عبد الله ، المنصورى ، الملك المنصور (٦٣٥ - ٦٩٨ هـ)

أعدل سلاطين المماليك ، وأتقاهم ، أعاد مسح الأراضى الزراعية فيما عُرف باسم « الروك الحسامى » ، وأبطل كثيرا من المكوس . انظر : تحفة ذوى الألباب

٢ / ١٨١ ، وأعيان العصر ٤ / ١٦٥ ، وإعلام الورى ، لابن طولون ٨ ، وشذرات الذهب ، لابن العماد ٥ / ٤٤٠ ، ومصر والشام ، لسعيد عاشور ٢٠٦ والأعلام ٥ / ٢٣٨ .

(٣) اللجُّون : بلد بالأردن ، بينه وبين طبرية عشرون ميلا . انظر : معجم البلدان ٥ / ١٣

(٤) الكَرَك : قلعة حصينة من نواحى البلقاء . انظر : معجم البلدان ٤ / ٤٥٣

(٥) سيف الدين ، طُغْجِى (ت ٦٩٨ هـ) كان أميرا فى دولتى العادل والمنصور ، وقتل بعد أربعة أيام من توليه السلطنة ، وقد نيّف على الثلاثين . انظر : كنز الدرر ٨ / ٣٧٧ ، والوافى بالوفيات ١٦ / ٤٥٢ ، وتذكرة النبيه ١ / ٢١٢ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٨٣ ، وشذرات الذهب ٥ / ٤٤٠ .

(٦) مَرْجِ الصُّفَّر : مكان قرب دمشق . انظر : معجم البلدان ٥ / ١٠١

اختار المماليك الملك المظفر [١] ، وأجلسوه على العرش ، فى شهر شوال من عام ٧٠٨ هـ ، وشاء الله - تعالى - أنْ ينخفض ماء النيل وتقلّ الأقوات ، وترتفع الأسعار ، وتسوء حالة الناس فى مصر ؛ فرفض أمراء الشام مبايعة المظفّر ، وجدَّدُوا البيعة للناصر ، فسار فى عسكر الشام قاصدا مصر ، فهرب المظفّر ، ثم قُتِل .

عاد الناصر إلى عرشه للمرة الثالثة ، فى شوّال من سنة ٧٠٩ هـ ، وقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وأصبح قادرا على مباشرة شئون الحكم بنفسه ، وفَوّض كلمته على الأمراء ، دون وصاية منهم ، وفرح الناس بعودته ، وعبّر الصفدى عن تلك العودة الميمونة بقوله [٢] :

تَثَنَّى عِطْفُ مِصْرٍ حِينَ وَافَى ... قُدُومُ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الْخَبِيرِ
فَذَلَّ الجَشْنَكِيرُ بِلاَ لِقَاءٍ ... وَأَمْسَى وَهْوَ ذُو جَأْشٍ نَكِيرِ
إِذَا لَمْ تَعْضُدِ الأَقْدَارُ شَخْصًا ... فَأَوَّلُ مَا يُرَاعُ مِنَ النَّصِيرِ

ولمّا استقرّ الأمر للملك الناصر قَتَل سَلاّر - نائبه ، ورأس الفتنة - وصادر أمواله وكنوزه ، وخَضَدَ [٣] شوكة المماليك الأشرفية وأخذهم بالحزم ، وحكم البلاد بلا منازع اثنتين وثلاثين سنة ، وهى مدة طويلة ،لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك ويكاد يجمع المؤرخون على أنَّ عصر الناصر أعظم عصور تاريخ مصر ، فى أيّام المماليك ، فامتد نفوذه من المغرب غربا إلى الشام والحجاز شرقا ، ومن النوبة

---

(١) ركن الدين ، بَيْبَرْس ، الجاشنكير ، المنصورى (ت ٧٠٩ هـ) شركسى الأصل ، كثير الخير والبر، محمود السيرة . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ٣٤٨ ، والمنهل الصافى ، لابن تغرى بردى ٣ / ٤٦٧ ، وشذرات الذهب ٦ / ١٨ ، والأعلام ٢ / ٧٩ .

(٢) انظر : حسن المحاضرة ٢ / ١١٤ ، وفى النجوم الزاهرة ٨ / ٢٧٥ ، بدون عزو ، وفى الوافى بالوفيات ١٠ / ٣٥٠ ، وأعيان العصر ٢ / ٧٤ فى ترجمة الملك المظفّر بيبرس .

(٣) خَضَدَ الشّىء : خَضْدًا : كَسَرَهُ . ويقال : خَضَدَ شوكة فلان : كَسَرَ حدّته .

جنوبا إلى آسيا الصغرى شمالا ، قال الصفدى [١] : « كان ملوك البلاد الكبار يهادونه ، ويراسلونه ، وكانت ترد إليه رسل صاحب الهند ، وبلاد أُزْبُك [٢] ، وملوك الحبشة ، وملوك الغرب ، والفرنج ، وبلاد الأَشْكَرِى [٣] ، وصاحب اليمن ، وأمَّا بوسعيد - ملك التتار .

فكانت الرسل لا تنقطع بينهما ...ومراسيم السلطان تنفذ فى بلاد بوسعيد ، ورسله يتوجّهون بأطلابهم [٤] ، وطبلخاناتهم [٥] ، بأعلامهم المنشورة ، وكلّما بَعُد الإنسان عن بلاده وجد مهابته أعظم ، ومكانته فى القلوب أعظم » .

أفاضت كتب التاريخ فى الحديث عن الناصر ، وبيان غزواته وبطولاته ، وتعديد عماراته ، وإصلاحاته ، ووصف أخلاقه ، فقد كان ملكا عظيما ، محظوظا ، مطاعا ، وبوفاته فى ذى الحجة من سنة ٧٤١ هـ بدأ عصر الانحدار فى حكم أسرة قلاوون ، وكان قد أوصى قبيل وفاته باختيار ابنه أبى بكر [٦] سلطانا من بعده ، ولم يحكم إلاّ شهرين ، ثم عزله نائبه قوصون ، وغدر به ؛ وقتله .

وتعاقب على العرش - بعد المنصور - سبعة من أبناء الناصر على مدى إحدى

---

(١) الوافى بالوفيات ٤ / ٣٧٠ .

(٢) أزبك : بلاد القفجاق ، وهى أرض القبائل الذهبية ، الممتدة شمالى بحر بنطش « البحر الأسود » وبحر قزوين إلى منابع نهرى آرتش وأوبى من سيبريا .

انظر : النجوم الزاهرة ١٠ / ١٩٦ الحاشية .

(٣) الأشكرى : صاحب القسطنطينية .

انظر : كتاب الجغرافيا ، لابن سعيد ١٨٣ ، وتقويم البلدان ٢٠٤ .

(٤) جمع طُلْب : الأمير الذى يقود مائتى فارس ، ويطلق على الكتيبة من الجيش انظر : Dozy : Supp . dict . Arab . VII , p 51.

(٥) جمع طبلخاناة ، وهى بيت الطبل ، وفيه الأبواق ، وتوابعها من الآلات ويرأسه أمير علم من أمراء العشرات .

انظر : Dozy : Supp . dict . Arab . VII , p 27

(٦) سيف الدين ، أبو بكر بن محمد بن قلاوون ، الملك المنصور (٧٢٠ - ٧٤٢ هـ) انظر فى ترجمته : دول الإسلام ٢ / ٢٤٨ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٢٥٠ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٦ ، وعصر الانحدار ، لأسعد طلس ٩٦ ، ومصر والشام ، لسعيد عاشور ٢٠٧ ، ٢١٣ ، والعصر المماليكى ١٢٧ ، والأعلام ٢ / ٦٩ .

وعشرين سنة ، كان آخرهم السلطان حسن [١] الذى حكم نحوا من عشر سنوات ، ولمّا رأى أمراء المماليك يقتلون إخوته واحدا بعد الآخر ، ويستأثرون بالسلطة من دونهم ، بدأ يستعين بأولاد الناس [٢] ، ويُؤَمِّرهم ؛ ليوجد قوة جديدة تكون سندا له فى مواجهة الجند الأتراك ، ولم يسعده الحظ فى تحقيق أمنيّته ، فقد وثب عليه مملوكه يَلْبُغَا ، وقتله .

كان الناصر حسن آخر أبناء الناصر محمد ، وبعد مقتله ، بدأ أمراء المماليك فى وضع أحفاده على العرش ، تسلطن منهم أربعة ، وعاصر الصفدى منهم اثنين ، هما محمد بن حاجى [٣] ، وشعبان بن حسين [٤] وكانا صبيين ، تسلّط عليهما يَلْبُغَا ، وأصبح الحاكم الفعلى للبلاد ، ترتكب الكبائر باسمهما ، وليس لهما من الأمر شىء ، وفى عصرهما ظهر الطاعون فى مصر والشام ، وكان الصفدى واحدا من ضحاياه .

عاش الصفدى فى هذه الفترة المضطربة ، من تاريخ مصر والشام ، فما كاد المماليك يخلّصون البلاد من المغول ، ويطهّرونها من الصليبيين حتّى تفرّغ بعضهم لبعض ، فهم قوم صناعتهم القتل فإنْ لم يجدوا عدُوًّا ظاهرًا يقاتلونه قَتَّلوا أنفسهم سعيا وراء السلطة فمن المعروف أنَّ المماليك لم يأخذوا بنظام الوراثة فى تولّى العرش ولم تكن تولية الابن بعد أبيه - فى أغلب الأحيان - إلاَّ حَلاًّ مؤقَّتًا حتى ينجلِىَ الموقف ،

---

(١) أبو المعالى ، حسن بن محمد ، الملك الناصر (٧٣٦ - ٧٦٢ هـ) كان شجاعا مهيبا ، ذا حزم ، وعزم . انظر : أعيان العصر ٢ / ٢٤٧ ، السلوك ، للمقريزى ٢ / ٣ / ٧٤٥ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٨ ، والأعلام ٢ / ٢١٦ .

(٢) هم أبناء المماليك من زوجاتهم العربيات . انظر : المماليك ، للعرينى ٥٤ .

(٣) الملك المنصور (٧٣٨ - ٨٠١ هـ) حكم سنتين وأشهرا ، ثم عزله يلبغا وحبسه ، فشُغِل باللهو والسُّكْر والسَّماع ، إلى أنْ مات . انظر : النجوم الزاهرة ١١ / ٣ ، وعصر الانحدار ٩٩ ، والأعلام ٦ / ٧٥ .

(٤) أبو المعالى ، ناصر الدين ، الملك الأشرف (٧٥٤ - ٧٧٨ هـ) كان حليما ، عادلا ، أنشأ أسطولا لمطاردة الإفرنج فى البحر المتوسط ، وانفرد بالحكم بعد مقتل يلبغا .

انظر : الخطط المقريزية ٣ / ١٧٨ ،والنجوم الزاهرة ١١ / ٢٤ ، والعصر المماليكى ١٣٤ ، والأعلام ٣ / ١٦٣ .

ويتمكّن القوى من الضعيف ، فمن استطاع منهم أنْ يتغلب على منافسه بخيله ورجله فَرَضَ سلطانه على الجميع ، وغالبا ما كان قاتل السلطان هو أحقُّ الأمراء فى اعتلاء العرش ؛ مما شجّع الأمراء على المغامرة ، والتآمر ، والتنافس فى امتلاك أسباب القوّة ، وذلك بشراء المماليك ، وتدريبهم ، فكان الناصرمحمد بن قلاوون يشترى كل سنة عبيدا بنحو مليون دينار [١] .

والمتأمّل فى تاريخ المماليك يدرك سببا خَفِيًّا يفسّر هذا الصراع الدموى ، من وراء تلك الأسباب الظاهرة له ، فلعلّهم كانوا يخشون على مكانتهم وسلطانهم من أهل البلاد ، وهم الغرباء عنها ، فإذا ما تولَّ الملك سلطان عادل ، يحبُّه الناس ، ويلتفُّون من حوله ، ويكونون له أنصارا وأعوانا ذهبت ريحهم وزال سلطانهم ، والدليل على ذلك :

كان حسام الدين لاجين بَرًّا ، رحيما ، زاهدا ، متواضعا ، كثير الصوم ، محترما للعلماء ، يمنعهم من تقبيل الأرض له [٢] على عادة غيره من الحكام ، دفعه حبّه الرعيّة إلى إلغاء كثير من الضرائب وكان يقول : « إنْ عشت ماتركت مَكْسًا واحدا » [٣]

وفى أيّامه أُبْطِلَت المنكرات ، ومُنِع البغاء والحشيش ، وعُوقِبَ شارب الخمر بالإعدام ، وتواصى الناس بالخير والصلاح والتقوى ولنقرأ ما كتبه ابن دانيال [٤] ناصحا من تسوّل له نفسه بارتكاب المعاصى ، قال :

احْذَرْ نَدِيمِى أنْ تَذُوقَ المُسْكِرَا ... أَوْ أَنْ تُحَاوِلَ قَطُّ أَمْرًا مُنْكَرَا
لاَ تَشْرَبِ الصَّهْبَاءَ صِرْفًا قَرْقَفَا ... وَتَزُورَ مَنْ تَهْوَاهُ إلاَّ فِى الكَرَى
أَنَا نَاصِحٌ لَكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِى ... اشْرَبْ إِذَا مَا رُمْتَ سُكْرًا سُكَّرًا

---

(١) انظر : أعيان العصر ٣ / ٢٠٣ .

(٢) أعيان العصر ٥ / ٢٠٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ٨ / ١٠٩ .

(٤) محمد بن دانيال بن يوسف ، شمس الدين (٦٤٧ - ٧١٠ هـ) طبيب عيون ، ومن أشهر شعراء مصر فى عصره ، انظر : أعيان العصر ٤ / ٤٢٢ ، والمقفى الكبير ٥/٦٣٩ ، والأعلام ٦ / ١٢٠ ، ومعجم المؤلفين ٩ / ٢٩٥ .

وَالرَّأْىُ عِنْدِى تَرْكُ عَقْلِكَ سَالِمًا مِنْ أَنْ تَرَاهُ بِالْمُدَامِ تَغَيَّرَا
ذِى دَوْلَةِ المَنْصُورِ لاَجِينَ الَّذِى قَهَرَ المُلُوكَ وَكَانَ سُلْطَانَ الوَرَى
إِيَّاكَ تَأْكُلُ أَخْضَرًا فِى عَصْرِهِ يَا ذَا الفَقِيرُ يَصِيرُ جِسْمُكَ أَحْمَرَا

وهى قصيدة طويلة [١] اختتمها بالدعوة إلى التوبة ، والدعاء للسلطان ، ويذكر له الصفدى كثيرا من المقطّعات التى تحمل هذا المعنى ، فقد روى له قصيدة طويلة فى رثاء إبليس أوّلها [٢] :

رَأَيْتُ فِى النَّوْمِ أَبَا مُرَّهْ وَهْوَ حَزِينُ الْقَلْبِ فِى مَرَّهْ
وَعَيْنُهُ العَوْرَاءُ مَقْرُوحَةٌ تَقْطُرُ دَمْعًا قَطْرَةً قَطْرَهْ

وبسبب صلاح لاجين وتقواه ، ومحبّة الناس له ؛ أسرع نائبه مُنْكُوتَمُر بإبعاده عن الناس ، وعزله ، وإفساد علائقه بالأمراء ، وكان فى ذلك هلاكهما .

وكان السلطان الناصر حسن محِبًّا للرعية ، لَيِّنَ الجانب ، مع ما عرف عنه من شجاعة ، وكرم ، وعقل ، وعندما شرع فى تعديل موازين القوى بالاعتماد على أبناء الناس ، من أجل الإصلاح سطا به نائبه يَلْبُغَا ؛ فقتله قبل أنْ تضيع مكانة أبنائهم من الأميرات المماليك .

بل يمكن القول : إنَّ أمراء المماليك كانوا يُهَيِّئُون للسلاطين أسباب الفساد ، ويدفعونهم إلى اللهو ؛ ليظهروا أمام العامة بمظهر الفسق والمجون ، فإذا ما قرَّروا التخلص منهم وجدوا مُبَرِّرًا يستترون وراءه ؛ لهذا كانوا يختارونهم صغار السن ، فيسهل توجيههم ، والاستحواذ عليهم ، وارتكاب الجرائم باسمهم .

فالملك الأشرف [٣] وضعوه على العرش وعمره ست سنوات وفى ذلك يقول

---

(١) فوات الوفيات ٣ / ٣٣٥ .

(٢) انظر : أعيان العصر ٤ / ٤٢٨ ، والوافى بالوفيات ٣ / ٥٤ .

(٣) كُجُك بن محمد بن قلاوون ، علاء الدين (٧٣٤ - ٧٤٦ هـ) كان تدبير أمر الدولة بيد نائبه قوصون ، وإذا طلب من الملك الأشرف توقيع أمر ، أُغطِى قلما فى يده ، وجاء الفقيه الذى يقرئ أولاد السلطان ، فيكتب العلامة ، والقلم فى يد السلطان . انظر : المختصر ٤ / ١٣٥ ، والخطط المقريزية ٣ / ١٧٨ والسلوك ٢ / ٣ / ٥٧١ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٦ ، وعصر الانحدار ٩٩ ، والأعلام ٥ / ٢٢٠ .

ابن الوردى معبّرا عن هذه المأساة [١] :

سُلْطَانُنَا اليَوْمَ طِفْلٌ ، وَالأَكَابِرُ فى خُلْفٍ ، وبَيْنَهُمُ الشَّيْطَانُ قَدْ نَزَغَا
وَكَيْفَ يَطْمَعُ مَنْ مَسَّتْهُ مَظْلَمَةٌ أَنْ يَبْلُغَ السُّؤْلَ ، وَالسُّلْطَانُ مَا بَلَغَا ؟

وكان الملك الصالح [٢] خير إخوته ، واستغل زوج أمه الأمير أَرْغُون حبّه للنساء؛ فكان يشجّعه على الانصراف إلى اللهو ويبدو أنّه أصيب بمرض عصبىّ عندما حُمِل إليه رأس أخيه الملك الناصر [٣] ولم يزل يعتاده المرض والفزع إلى أنْ لقى حتفه ، وقال الصفدى يرثيه [٤] ، مضمّنًا :

مَضَى الصَّالِحُ المَرْجُوُّ لِلْبَأْسِ وَالنَّدَى وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَلْقَى الْمُنَى ، وَالْمَنَائِحِ
فَيَا مُلْكَ مِصْرٍ كَيْفَ حَالُكَ بَعْدَهُ « إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحِ » ؟

وتتجلّى مأساة السلاطين الصغار فى مصير الملك المظفر [٥] الذى وضعه الأمراء على العرش ، وهو فى الحادية عشرة من عمره مشغولا باللعب بالحَمَام ، يصنع لها خلاخيل من ذهب ، وأطواقا من الجوهر ، ومقاصير من خشب الأبنوس مطعّمة بالعاج ، وقُتِل باسمه الكثير من الأمراء ، ولمّا خُلِع فى يوم الثانى عشر من شهر رمضان المعظّم ذُبِح من ساعته .

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ٤ / ١٣٥ .

(٢) إسماعيل بن محمد بن قلاوون ، عماد الدين (ت ٧٤٦ هـ) حكم ثلاث سنين وأشهرا . انظر : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ١٣٥ ، والوافى بالوفيات ٩ / ٢١٩ ، والخطط المقريزية ٣ / ١٧٨ ، والسلوك ، ٢ / ٣ / ٦١٩ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٧ وشذرات الذهب ٦ / ١٤٨ ، والعصر المماليكى ١٢٨ ، والأعلام ١ / ٣٢٤ .

(٣) أحمد بن محمد بن قلاوون ، شهاب الدين (٧١٦ - ٧٤٥ هـ) انظر فى ترجمته : الوافى بالوفيات ٨ / ٨٦ ، وأعيان العصر ١ / ٣٧٠ ، والوافى بالوفيات ٨ / ٢٨٦ ، والسلوك ٢ / ٣ / ٥٩٣ ، والعصر المماليكى ١٢٧ ، وعصر الانحدار ٩٩ ، والأعلام ١ / ٢٢٣ .

(٤) حسن المحاضرة ٢ / ١١٧ ، والشطر الثانى من البيت الثانى صدر بيت لأبى نواس من قصيدة فى مدح الأمين ، وهى فى ديوانه ٤١٥ ، وتمام البيت :

فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِى ، وَفَوْقَ الَّذِى نُثْنِى

(٥) حاجى بن محمد بن قلاوون ، زين الدين (٧٣٢ - ٧٤٨ هـ) انظر فى ترجمته : أعيان العصر ٢ / ١٧٦ ، والوافى بالوفيات ١١ / ٢٣٧ ، والدرر الكامنة ٢ / ٣ ، والمنهل الصافى ٥ / ٥٠ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٨ ، والعصر المماليكى ١٢٨ ، والأعلام ٢ / ١٥٣ .

ورثى الصفدى الملك المظفر بقوله [١] :

أَيُّهَا العَاقِلُ اللَّبِيبُ تَفَكَّرْ ... فِى المَلِيكِ الْمُظَفَّرِ الضِّرْغَامِ
كَمْ تَمَادَى فِى البَغْيِ وَالْغَىِّ حَتَّى ... كَانَ بَعْثُ الْحَمَامِ حَدَّ الحِمَامِ

وقال فيه أيضا [٢] :

حَانَ الرَّدَى لِلْمُظَفَّرْ ... وَفِى التُّرَابِ تَعَفَّرْ
كَمْ قَدْ أَبَادَ أَمِيرًا ... عَلَى الْمَعَالِى تَوَفَّرْ
وَقَاتِلُ النَّفْسِ ظُلْمًا ... ذُنُوبُهُ مَا تُكَفَّرْ

ورثاء الصفدى للمظفّر إنّما هو قول شاعر ، فصبِىَ كالمظفر لم يبلغ الحلم ، ولم يكن له من الأمر شىء ، لا يُؤْخَذ بجرم اقترفه ، ولا يحاسب على ذنب جناه ، وإنّما إثمه على الذين نصّبوه فى هذا المنصب الكبير ، وهو ليس له أهل .

ومن الملاحظ أنّ صغر سنّ السلاطين من أبناء الناصر وحفدته الذين تعاقبوا على دَسْت الملك كان سببا رئيسا فى وجود أمير يدبّر أمور المملكة باسمه ، وكان لا بُدّ أنْ يُؤَدّىَ استبداد الأمراء بالسلطة ، واشتداد سطوتهم ، وتلاعبهم بالسلاطين الصغار – بالتعيين ، أوالعزل ، أو القتل – وَفْق أهوائهم وسَيْرًا مع مصلحة طائفة الأمير المتسلّط ، كان لا بدّ أنْ يُؤَدّى هذا الاستبداد إلى أنْ يزيد الصراع الطائفى اشتعالا ؛ إذْ من المعروف أنَّ المماليك كانوا ينقسمون إلى طوائف وفرق ، عُرِف منها المماليك البحرية [٣] ، والبُرْجيَّة [٤] كما كانوا يجلبون من مراكز متعدّدة وجنسيات مختلفة [٥] وكل طائفة من تلك الطوائف تلعن أختها ، وتسعى فى إزالتها بالمكر حينا ، وبالقتل أحيانا .

---

(١) حسن المحاضرة ٢ / ١١٧ ، والسلوك ٢ / ٣ / ٧١٣ .

(٢) حسن المحاضرة ٢ / ١١٨ ، والنجوم الزاهرة ١٠ / ٧٤٧ .

(٣) كان السلطان الصالح نجم الدين أيُّوب أوّل من سمّاهم بهذا الاسم ؛ لأنّهم كانوا يقيمون فى جزيرة الروضة ، وسط بحر النيل ، أو لأنّهم كانوا يجلبون من طريق البحر صحبة تجار الرقيق . انظر : العصر المماليكى ٥ .

(٤) عرفوا باسم « المماليك الجراكسة ، أو البرجيّة » ؛ لأنّهم كانوا يقيمون فى ثكنات خاصة بهم فى قلعة القاهرة . انظر : تاريخ الدول الإسلامية ١ / ١٦٠ .

(٥) انظر : قيام دولة المماليك الأولى ٩ – ٦١ .

هذه الحالة السياسيّة المضطربة ، القلقة تنعكس آثارها على حياة الشعب ؛ فيختلّ الأمن ، وتسوء العاقبة ، وهو ما سيتضح للقارئ من خلال تصوير الحياة الاجتماعية .

obeikandl.com